بلاغةُ الإبهامِ البَدِيعِيّ في تَمْوِيهِ المَعْنَى
(دراسةٌ بلاغيّةٌ في ضوءِ التّأويلِ)

SULIMAN ALOMIRAT [1*]

"ANLAMI GİZLEMEDE BEDÎ'Î İBHÂMIN BELÂGATI"
(TE'VÎL IŞIĞINDA BELÂĞÎ BİR ARAŞTIRMA)

ÖZ

Makale, bedi' ilminde ibhâm olarak isimlendirilen belâgat sanatını ele almaktadır. İbhâm, beliğ mütekellimin (bilinçli olarak) muhataba iki zıt manadan birisini tercih etmesine yardımcı olacak bir karîne vermeksizin, aynı anda iki zıt mananın anlaşıldığı bir söz söylemesidir. Makale, beliğ mütekellimin ibhâm sanatını yapmak için kullandığı çeşitli dilsel üsluplardan da bahseder. Ayrıca makale, ibhâm belâgatına dikkat eden muhataptaki te'vil ve telakkî kabiliyetini işlemektedir. Makale, bir hazırlık kısmıyla başlayıp, ibhâm terimlerinin tariflerini yapmakta daha sonra şiirlerden ve nesirlerden misaller vererek devam etmekte ve sonuç kısmıyla bitmektedir.

Anahtar Kelimeler: İbhâm, Bedi', Belâgat, Te'vil, Siyâk, Karîneler

THE RHETORIC OF AL-IBHAM AL-BADI'I IN DISGUISING THE MEANING

[1*] Yrd.Doç.Dr. İzmir Kâtip Çelebi Üniversitesi İslâmi İlimler Fakültesi – Arap Dili ve Belâgati bölümü - İzmir- Türkiey.
e-mail: sulimanomirat@gmail.com

(RHETORIC STUDY IN TERMS OF INTERPRETATION)

ABSTRACT

This research examines an art of rhetoric in ‘ilm al-badi’i that is called as “al-ibham” (obscurity); that an eloquent speaker (deliberately) says a speech which is understandable in two opposing meanings at the same time, as long as he doesn’t give to the listener a clue that specify a choice of one meaning over the other opposing one. The research studies various verbal styles that are used by an eloquent speaker for building al-ibham, and discusses about the skill of receiving and interpretation of a listener that is aware for eloquence of al-ibham.

The research begins with an introduction, definition of al-ibham term, presents examples from poetry, prose, and the conclusion.

***Keywords**: Al-ibham al-badi’i, Rhetoric, Interpretation, Context, Clue*

مُلخَّص البحث

يدرُسُ البحثُ بلاغةَ صَنْعَةٍ في علم البديعِ تُسمَّى "الإبهام"؛ وهي أنْ يقولَ المتكلِّمُ البليغُ (عن قصدٍ) كلامًا يُفْهَمُ بمعنيَينِ مُتضادَّينِ في الوقتِ نفسِه؛ بشرطِ ألّا يَتْرُكَ للمُتلقّي قرينةً تُعينُه على ترجيحِ أحدِ المعنيَينِ المتضادَّين.

ويدرسُ الأساليبَ اللُّغويّةَ المتنوّعةَ التي يستخدمُها المتكلِّمُ البليغُ لصُنع الإبهام.

ويتكلَّمُ أيضًا على مهارة التلقّي والتّأويل عندَ المخاطَب الذي يتنبَّهُ إلى بلاغةِ الإبهام.

يبدأ البحثُ بتمهيدٍ، ثُمّ تعريفٍ لمصطلَح الإبهامِ، ثُمّ يُورِدُ أمثلةً من الشِّعر والنّثر، ثُمّ خاتمة.

الكلمات المفتاحيّة: الإبهام البديعيّ، البلاغة، التأويل، السّياق، القرائن.

تمهيد:

إنَّ علمَ البلاغةِ بأكملِه يُمكِنُ تلخيصُه في ثلاثِ كلماتٍ: "لكُلِّ مقامٍ مَقالٌ"؛ لذا لا نستطيعُ القولَ: إنّ الإيضاحَ والإفصاحَ والبيانَ هو دائمًا علامةُ البلاغة، ولا نستطيعُ القولَ بأنَّ الإبهامَ والإغماضَ والإلباسَ هو دائمًا علامةُ الإخلالِ بالفصاحة والبلاغة.

ولكنَّ الميزانَ في ذلك هو: مُراعاةُ الكلامِ لمُقتضَى الحال؛ لأنّ حاجةَ البليغِ إلى الإيضاحِ في مقامِه كحاجتِه إلى الإغماض والإلباسِ في مقامِه.

فمثلًا لو استدعاكَ القاضي إلى المحكمةِ؛ ليأخذَ أقوالَك وشهادَتَك حولَ قضيّةٍ ما؛ فإنَّ هذا المَقامَ (عندَ القاضي في المَحْكَمة) يقتضي منك أنْ تتكلَّمَ بوُضوحٍ وبيانٍ بدونِ مَجازٍ أو توريةٍ أو مُوارَبة؛ لأنّ هذا المقامَ ليسَ مَقامَ اللَّعِبِ بالكلماتِ؛ لأنّ أيَّ خطأٍ في الفَهْمِ أو الإفهام قد يُؤَدّي إلى الظُّلْم وأكْلِ الحقوقِ...، بينَما في مَقامِ الحديث عن أُمورِ الحَياءِ وعلاقةِ الرّجُلِ بالمرأةِ يَحْسُنُ بنا استعمالُ أسلوبِ الكنايةِ، وهذا الأدبُ العالي علَّمَنا إيّاه القرآنُ الكريمُ؛ لأنّنا نرى كُلَّ المواطنِ التي تتناوَلُ علاقةَ الرَّجُلِ بالمرأةِ في القرآنِ الكريم جاءَتْ بأسلوبِ الكنايةِ لا بالتّصريح. إذًا يُمكنُنا القولُ: إنَّ من البلاغةِ الإفهامَ والإبهامَ؛ كلٌّ في مَقامِه.

ويهدفُ هذا المقالُ إلى بيانِ قيمةِ مُحسِّنٍ بلاغيٍّ يُسمَّى: "الإبهام" وهو أن يقولَ المتكلّمُ كلامًا يُفهَم بمعنيَين متضادَّين في الوقتِ نفسِه، ولا شكَّ بأنّ الكلامَ عندَما يكونُ مُحتمِلًا معنيَين متضادَّين (عن قَصْدٍ ودَهاءٍ من المتكلِّم)؛ فإنّ هذا الكلامَ يأخذُ قيمةً ويكونُ بلاغةً ومُراقَصَةً للكلمات وتلاعُبًا بأفهامِ السَّامعين؛ أمّا إذا كانَ هذا الكلامُ المحتمِلُ لمعنيَينِ مُتضادَّينِ عن غيرِ قصْدٍ من المتكلّمِ فإنّه يكونُ بلاهةً لا محلَّ لها من البلاغة.

والمُحَسِّنُ البديعيُّ المَدعُوُّ "الإبهام" تأتي بلاغتُه وجماليّتُه من كونِه يُفضي بالمتلقّي إلى غُموضٍ في الرُّؤيةِ وإلى الدَّوَرانِ في فَلَكِ الاحتمالاتِ والمعاني المُتعدِّدةِ، ويَحْرِمُه من التقاط المعنى المقصودِ ابتداءً، وعندَها تبدأُ عمليّةُ التّأويلِ بغرضِ استبانةِ مُرادِ المتكلّم.

ولا يَخفى أنّ قُدْرَةَ المتكلّمِ على إبداعِ مثلِ هذه التَّعبيراتِ (المُحتملةِ معنيَين مُتضادّين في وقتٍ واحدٍ) جديرةٌ بالإعجابِ، ولولا ذلك ما قال المتنبّي مُفتخِرًا بقصائدِه: [البسيط]

أنامَ ملءَ جفوني عن شوارِدِها ويسهرُ الخَلْقُ جَرَّاها ويختصمُ

وبُعَيْدَ قليلٍ سترى أنّه لا تَخْلُو تلك الطّريقةُ الكلاميّةُ من طرافةٍ تُسهِمُ في إمتاعِ المُتلقّي، وتُضفي على النَّصّ حركةً وحيويّةً. وتُعَدُّ هذه الطّريقةُ تطوُّرًا وازدهارًا في طرائق التَّفكيرِ اللّغويّ الإنسانيّ؛ لأنّ أغلبَ الظنّ أنَّ المتكلّم الأوّلَ كان كلامُه ظاهراً لا باطنَ له، ذا دلالةٍ واضِحةٍ أُحاديّةِ الاتّجاه، لا يعرفُ الانزياحَ، ولا يتعاطى ألاعيبَ القولِ التي تُخاتِلُ المتلقّيَ وتُخادِعُه حتَّى تستخفَّه بروعتها بعدَ أنْ تتبيّنَ له المعاني الجديدةُ التي لم تقفِزْ إلى ساحةِ إدراكِه ابتداءً.

الموضوع:

❖ أوّلًا: مُصطلَح الإبهام:

الإبهامُ لغةً: الإخفاءُ، وأَبْهَمَ الرَّجلُ كلامَه؛ يعني جعلَ كلامَه مُغلَقًا غيرَ واضحٍ.

أمّا تعريفُ مُصْطَلَحِ "الإبهام" كما يُفْهَمُ من كُتُب البلاغيّين المتأخّرين فهو: أنْ يأتيَ المتكلّمُ بكلامٍ مُبهَمٍ يحتملُ معنيَين متضادَّين؛ لا يَمتازُ أحدُهما من الآخَر؛ (كالجملة التي تُفهَمُ مدحًا وذمًّا في آنٍ معًا)؛ ولا يأتي بعدَه قرينةٌ تُمَيِّزُ المعنى المرادَ منهما؛ ويكونُ ذلك بقصدٍ من المتكلّم إلى الإبهام؛ وذلك لنُكتةٍ بلاغيّةٍ ينويها المتكلّمُ؛ كأنْ يبلُغَ غرضَه دونما دلائلَ يُدانُ بها.[٢]

وقد قال ابنُ أبي الإصبع المصريُّ (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م) في تعريفه: "هو أنْ يقولَ المُتكلّمُ كلامًا يحتمِلُ معنيَينِ مُتضادَّينِ، لا يتميّزُ أحدُهما على الآخرِ، ولا يأتي في كلامِه بما يحصُلُ به التّمييزُ فيما بعدَ ذلك، بل يُقْصَدُ إبهامُ الأمرِ فيهما قَصْدًا".[٣]

ويُسمّيه بعضُهم: "مُحْتَمِلُ الضِّدَّينِ"[٤] ؛ لأنَّ المعنيَينِ اللَّذينِ يُفيدُهما معًا متضادّانِ، ويسمّيه آخرون: "التَّوجيه" لأنَّه ذو وَجهَينِ.

---

[٢] () الفرقُ بينَه وبين الاشتراك الّذي هو من مَعايبِ فصاحة الكلمة: أنَّ الاشتراكَ لا يقعُ إلّا في لَفظةٍ مُفرَدةٍ لها مفهومان لا يُعلَمُ أيُّهما أرادَ المتكلّمُ، أمّا الإبهامُ فلا يكونُ إلّا في الجُملة المرَكّبةِ المفيدة، ويختصّ بالفنون كالمديح والهجاء. انظر: تحرير التّحبير ص٥٩٦. والفرق بينه وبين التّورية أنّه في التّورية يكونُ أحدُ المعنَيَين خافياً وثانيهما ظاهراً، والمرادُ هو الخَفيُّ.

[٣] () انظر: تحرير التّحبير ص٥٩٦.

[٤] () انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها ص٢٥، ص٦٠٦.

والمُلاحَظُ أنّ البلاغيّين الأوائلَ لم يَذْكُروا في مُصَنَّفاتِهم هذا النَّوعَ البديعيَّ؛ فمؤسِّسُ علمِ البديعِ الخليفةُ العَبّاسيُّ ابنُ المُعتزِّ (ت٢٩٦هـ/٩٠٩م) لم يذكرْه في كتابه: "البديع"، والجاحظُ (ت٢٥٥هـ/٨٦٩م) لم يذكره في كتابه: "البيان والتّبيين"، وكذلك أبو هلال العسكريُّ (ت٣٩٥هـ/١٠٠٥م) في كتابه: "الصِّناعتين"، وكذا عبدُ القاهر الجرجانيّ (ت٤٧١هـ/١٠٧٨م) في كتابَيه المشهورين: "أسرار البلاغة"، و"دلائل الإعجاز".

. بل اعتنى به البلاغِيُّون المتأخِّرون الذين اهتمُّوا بعلم البديع؛ أمثال: ابن رشيق القيروانيّ (ت٤٦٣هـ/١٠٧١م) في كتابه "العُمدة في محاسِن الشِّعر وآدابه" في بابٍ أسماهُ (باب ما أشكل من المدح والهجاء)، وابن أبي الإصبعِ المصريِّ (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م) في كتابه: "تحرير التّحبير"، وابن حِجّة الحمويّ (ت٨٣٧هـ/١٤٣٣م) في كتابه: "خزانة الأدب وغاية الأرَب"، وابن معصوم المدنيّ (ت١١١٩هـ/١٧٠٧م) في كتابه: "أنوار الربيع في أنواع البديع".

❖ ثانيًا: الأمثلة الشِّعرية:

- يُحْكى أنَّ الشّاعرَ بشّارَ بنَ بُرْدٍ (ت١٦٧هـ/٧٨٤م) فَصَّلَ قَبَاءً عندَ خَيَّاطٍ (أَعْوَرَ) اسمُه: زيد، فقالَ له الخيَّاطُ على سبيلِ المِزاح: سآتيكَ به لا تَدْري أَقَبَاءٌ هو أم دُوَّاجٌ[٥]؟، فقالَ له بشَّار: لَئِنْ فَعَلْتَ لَأَنْظِمَنَّ فيك بيتًا لا يَعْلَمُ أحدٌ مِمَّن سَمِعَه أَدَعَوْتُ لكَ أم دَعَوتُ عليك، ففَعَلَ الخَيَّاطُ، فقال بشَّار: [مجزوء الرَّمَل]

جاءَ مِن زيدٍ قَباءُ ليتَ عينيه سَواءُ!

قُلْ لِمَن يعرفُ هذا: أمديحٌ أم هِجاءُ؟[٦]

فما عُرِفَ قَصْدُ الشَّاعرِ:

- هل دَعَا له أنْ تُسَوَّى عينُه العَوراءُ بالصَّحيحةِ فيُبْصِرَ إبصارًا تامًّا؟
- أو دَعَا عليه أنْ تُسَوَّى الصَّحيحةُ بالعَوراءِ فيُكَفَّ بَصَرُه؟

---

[٥] () الدُّوَّاج: ضربٌ من الثياب أعجميّ. (اللسان: دوج).

[٦] () انظر: ملحق ديوان بشَّار بن بُرْد ٩/٤، ومعاهد التَّنصيص ١٣٨/٣، وأنوار الرَّبيع ٧/٢. والقَباءُ: ضَرْبٌ من الثِّياب.

وقيلَ: إنَّ سببَ إنشاءِ البيتينِ أنَّ الخيّاطَ زيدًا ناوَلَ بشَّارًا القَباءَ قائِلًا: هذا الثَّوبُ إنْ شِئْتَ لَبِسْتَهُ على وجهِه، وإنْ شئتَ لَبِسْتَه على بِطانتِه، فقال له بشَّار: وأنا أقولُ فيك شِعرًا إنْ شِئتَ جَعَلْتَه مَدْحًا، وإنْ شِئْتَ جَعَلْتَه ذَمًّا، ثُمَّ أَنْشَدَهُ البيتينِ. [٧]

- ومِن طَريفِ الإبهامِ المُوهِمِ – ولك أن تُلْحِقَه بصنعةِ الاتِّساعِ البديعيّ[٨]– ما حُكِيَ عن غُلامَينِ أُتِيَ بهما إلى بعضِ وُلاةِ بغدادَ، فقالَ لأحدِهما: مَن أبوكَ؟ فقال: [الطَّويل]

أنا ابْنُ الَّذي لا تَنْزِلُ الدَّهْرَ قِدْرُهُ وإنْ نَزَلَتْ يومًا فسوفَ تَعودُ

تَرى النَّاسَ أفواجًا إلى ضوءِ نارِهِ فمنهمْ قِيامٌ حَوْلَها وقُعُودُ[٩]

فعَظُمَ في عينِه، وقالَ: هذا أبوه مِن بيتٍ كبيرٍ، وقال للآخَرِ: مَن أبوك؟ فقال: [المنسرح]

أنا ابْنُ مَن دانَتِ الرِّقابُ لهُ ما بينَ مَخْزومِها وهاشِمِها

تَأْتِي إليهِ الوُفُودُ خاضِعَةً يأْخُذُ مِن مالِها ومِن دَمِها[١٠]

فقالَ الوالي: ما أَشُكُّ أنَّ هذا أبوه كانَ مَلِكًا شُجاعًا، فأمَرَ بإطلاقِهما، فلمَّا انصرفَا كانَ في المجلِسِ رَجُلٌ نَبِيهٌ، فقالَ للوالي: الشَّابُّ الأوَّلُ كانَ أبوه فَوَّالًا، والثَّاني كانَ أبوه حَجَّامًا، فأُعجِبَ الوالي منه ومنهما!

- ومنه ما قِيلَ ويُقالُ في كافُورِيّاتِ أبي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي (ت٣٥٤هـ/٩٦٥م)؛ فقد ذهَبَ قومٌ إلى أنَّ المُتَنَبِّيَ في كافورِيّاتِه كانَ يَمْدَحُ ويَهْجُو معًا[١١]، ولعلَّ ابنَ جِنِّيّ (ت٣٩٢هـ/١٠٠٢م) هو أوَّلُ مَن أثارَ قضيّةَ الهِجاءَ المُبَطَّنَ في مدائحِ كافور، وقد راقَتْ هذه الفكرةُ للنَّاسِ الَّذين وَجَدُوا في شِعْرِ

---

[٧] انظر: مقدّمة تفسير ابن النَّقيب ص٣٤٨.

[٨] يُمْكِنُ إلحاقُ هذا المثال بصنعة الاتِّساعِ البديعيّ. انظر: معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها ص٢٧، والمنزَع البديع ص٤٢٩، وأنوار الربيع ٥٣/٦.

[٩] انظر: خزانة الأدب ٢٠٠/٤.

[١٠] انظر: خزانة الأدب ٢٠٠/٤.

[١١] انظر: المثل السَّائر ٦٤/١ وما بعدها، وجماليّات القصيدة في شعر أبي الطَّيّب المتنبّي ص١١٣– ١١٨.

المُتَنَبّي ما يُعزّزُها، حتَّى ألَّفَ مُفتي السَّلْطَنَةِ العُثْمَانِيّةِ في القُسْطَنْطِينِيَّةِ حُسام الدِّين زادَه عبد الرّحمن أفندي (ت١٢٨١هـ/١٨٦٤م) رسالةً في ذلك؛ أَسْمَاها (رسالةٌ في قَلْبِ كافُوريّاتِ المُتَنَبّي من المديحِ إلى الهِجاءِ)[١]، وشَجَّعَهم على ذلك إشاراتٌ أو تصريحاتٌ شِعريّةٌ استَقَوها من قصائدِ المتنبّي؛ كقولِه: [المتقارب] ٢

وشِعْرٍ مَدَحْتُ بِهِ الكَرْكَدَنْ نَ بينَ القَرِيْضِ وبينَ الرُّقَى

فَمَا كَانَ ذلكَ مَدْحًا لهُ وَلكنَّه كانَ هَجْوَ الْوَرَى[١]

فأبو الطَّيِّبِ ههنا يُصَرّحُ بأنَّ مديحَه لكافور في ظاهرِهِ شعرٌ، وفي باطِنِه رُقْيَا له، وهذا المديحُ ما كانَ إلَّا هِجاءً للمجتمع وللنَّاس الَّذين قَبِلُوا بهذا الكَرْكَدَنّ مَلِكًا عليهم، وأَحْوَجُوا المُتَنَبّي إلى هذا العَبْدِ الأَسْوَدِ؛ ولا سيَّما أنَّ المتنبّي كان يحتقِرُ كافورَ الإخشيديّ (ت٣٥٧هـ/٩٦٨م) ويذُمُّه أنَّه عَبْدٌ، وأسود، ومَخْصِيّ...، وهو يُصَرّحُ في مكانٍ آخَرَ بأنَّ مدائِحَه في كافور ما كانتْ إلَّا هجاءً وسُخريةً؛ فالمتنبّي يَتَسَلَّى ويَسْخَرُ ويَعْبَثُ، وكافورُ مسرورٌ يَظُنُّ أبا الطَّيِّبِ مادِحًا له مُعْجَبًا به؛ حيثُ يقولُ: [الطَّويل]

وَلَوْلا فُضُولُ النَّاسِ جِئْتُكَ مادِحًا بما كنْتُ في سِرّي بِهِ لكَ هاجِيَا

فأصْبَحْتَ مَسرُورًا بمَا أنَا مُنشِدٌ وَإنْ كانَ بالإنْشادِ هَجوُكَ غَالِيَا[١]

فكأنَّه يقول له: أنت لا تدري المدحَ من الهجاء، وأنا أهجوكَ في سِرّي وإن مدحتُكَ ظاهراً، ولولا فضولُ النَّاس لَأظهرْتُ هجاءَك وقلتُ لك بأنّي أمدحُك به، ولكنَّ النَّاسَ فيهم فُضُولٌ فهم كانُوا سيقولون لك: إنَّ ما أتاك به هجاءٌ لا مديحٌ، وأنتَ أقلُّ قَدْرًا وقيمةً مِن أنْ تُهجى ويُنشَدَ هِجاؤك.

---

[١٢] () طُبِعَت هذه الرّسالة بتحقيق: د. محمد يوسف نجم، مؤسسة الرّسالة – بيروت، ط١، ١٩٧٢م. وبتحقيق: د. حمدي الشّيخ، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندريّة، ٢٠٠٧م.

[١٣] () انظر: ديوان المتنبي ١/٤٣-٤٤. والكركدّن هو الحمار الهنديّ، وأرادَ بها الأسود.

[١٤] () انظر: ديوان المتنبي ٤/٢٩٥.

ولهذه القضيّةِ – أقصِدُ اختلافَ النَّاسِ في كافوريّات أبي الطّيّب – لهذه القضيّة شُجُونٌ ليسَ هذا مكانَها، وتحتاجُ مقالًا وبحثًا مُسْتَقِلًّا، ولكنَّ ما يَعنينا ههنا أنَّ بعضَ مدائحِ المتنبّي لكافور الإخشيديّ إنْ أُعِيدَتْ إلى سياقِها، ونُظِرَ في القرائنِ المحيطةِ بها، ولم يُهتدَ بعد ذلك إلى ترجيحِ أحدِ المعنيين من المدح أو الهجاءِ؛ فإنَّ تلك الأشعار –عندئذٍ– تدخُلُ في بابِ الإبهامِ الَّذي نتكلَّمُ عنه.

- وممَّا زَعَمُوا أنَّه مَدْحٌ مُبَطَّنٌ بالهجاءِ قولُه: [الطَّويل]

وغَيْرُ كَثِيرٍ أَنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ ... فيَرْجِعَ مَلْكًا لِلْعِراقَيْنِ وَالِيَا[١٥]

فإنَّ لك أنْ تُفَسِّرَ هذا البيتَ بأنَّه:

- مدحٌ: لا يُسْتَكْثَرُ منك يا كافورُ أنْ تَهَبَ العراقَين (الكوفةَ والبَصرة) لرجُلٍ قَصَدَك راجِلًا (ماشيًا على قدمَيه) فيعودَ واليًا عليهما، وهذا غايةٌ في المدحِ، ولا مزيدَ في الحُسنِ عليه.
- أو ذَمّ: يَصْدُقُ فيه أيضًا أنْ تقولَ: إنَّ مَن زارَكَ ورأى ما بك من نَقْصٍ وخِسَّةٍ وضَعَةٍ وقد أصبحتَ مَلِكًا، فلا يَسْتَكْثِرُ لنفسِه أنْ يَرْجِعَ واليًا على بلادِه، وهو حُرٌّ وأشرفُ منك.

- وكذلك قولُه: [الطَّويل]

ويُغْنِيكَ عَمَّا يَنْسُبُ النَّاسُ أنَّهُ ... إليكَ تَنَاهَى المَكْرُمَاتُ وتُنْسَبُ

وأَيُّ قَبِيلٍ يَسْتَحِقُّكَ قَدْرُهُ ... مَعَدُّ بْنُ عَدْنانٍ فِدَاكَ ويَعْرُبُ

ومَا طَرَبِي لَمَّا رَأَيْتُكَ بِدْعَةً ... لقد كُنْتُ أرجُو أنْ أراكَ فأَطْرَبُ[١٦]

---

[١٥] () انظر: ديوان المتنبّي ٤/٢٩٠.

وهذه الأبياتُ يُمْكِنُكَ أيضًا أنْ تفهمَها مدحًا وذمًّا:

- المدح: أنتَ يا كافورُ لستَ في حاجةٍ إلى الافتخارِ بانتسابِكَ إلى القبيلةِ الفُلَانيّةِ أو الفلانيّةِ كما يَفْعَلُ الآخَرونَ، لأنَّ كُلَّ المُكْرُماتِ والأُمورِ العظيمةِ تُنسَبُ إليك. وقيمتُكَ فوقَ كُلِّ القبائلِ العربيّةِ، وفوقَ قيمةِ أجدادِهم. وعندَما رأيتُكَ طَرِبْتُ، وهذا ليس عجيبًا، فقد كنتُ سمعتُ عنك كثيرًا، وتمنّيتُ أنْ أراكَ لأشعرَ فالفرح والطَّرَب والثَّمالة.
- الذَّمّ: وجهُ الذَّمِّ في البيت الأوّل: إنَّك عبدٌ لا أصلَ لك تفتخرُ به ولا حَسَب، فبحسْبِك أنَّ النَّاسَ يَنسِبون كُلَّ المكرماتِ إليك. وأمَّا في الثَّاني: فَمَن كافورُ أمامَ سيّدِنا مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم حتَّى يُقالَ له: (مَعَدُّ بنُ عَدْنانٍ فِداكَ ويَعْرُبُ)! وأمَّا وجهُ الذَّمِّ في البيتِ الثَّالثِ: فقد حُكِيَ على لسانِ ابنِ جِنّيّ (ت٣٩٢هـ/١٠٠٢م) أنَّه قَرَأَ على أبي الطَّيِّبِ ديوانَه، حتَّى أَتَى على قولِه: (وما طَرَبي...)، فقالَ له: يا أبا الطَّيِّب، لم تَزِدْ على أنْ [٧]جَعَلْتَه أبا زَنَّة [كنية القِرْد][١]، فضَحِكَ لقولِه![١]. ولعلَّ الهجاءَ المبطَّنَ أوضحُ ما يكونُ في هذه الأبيات السّابقة، ويُعزِّزُ هذه القناعةَ لدينا أنَّك إذا تَدَبَّرْتَ البيتَ الثَّالثَ، ثمَّ عُدْتَ فتأمَّلْتَ قولَه في قصيدةٍ أُخرى في هَجْوِ كافور: [الطَّويل]

ومِثْلُكَ يُؤْتَى مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ لِيُضْحِكَ رَبَّاتِ الحِدادِ البَوَاكيا[١]

إذا تَدَبَّرْتَ هذا البيتَ، ثُمَّ قايَسْتَه بالبيتِ الثَّالثِ تعزَّزَ هذا المذهبُ لديك.

- وأمَّا قولُه: [الطّويل]

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ ولو كانَ مِن أعدائِكَ القَمَرانِ

وللهِ سِرٌّ في عُلاكَ، وإنَّما كَلَامُ العِدَى ضَرْبٌ مِنَ الْهَذَيانِ

---

[١٦] () انظر: ديوان المتنبّي ١/١٨٦.

[١٧] () انظر: اللسان (زنن).

[١٨] () انظر: المثل السَّائر ١/٦٥- ٦٦.

[١٩] () انظر: ديوان المتنبي ٤/٢٩٦.

فما لكَ تختارُ القِسِيَّ، وإنَّما عنِ السَّعْدِ يرمي دونَكَ الثَّقلان؟

وما لكَ تُعْنى بالأسِنَّةِ والقَنَا وجَدُّكَ طَعَّانٌ بغيرِ سِنانِ![٢٠]

فإنَّ الهجاءَ المبطَّن ظاهرٌ فيه أيضًا، فالقَمَرانِ يُبْغِضانِ هذا الكافور، وإنَّ ما فيه كافور من النِّعمةِ والسُّؤدُدِ لا يُعرَفُ له سببٌ، وليس يُفسِّرُه عاقلٌ؛ لا ريبَ في أنَّه من أسرارِ الله، وكما يقولون في المَثَلِ العربيّ: "اللهُ يَجْعَلُ سِرَّه في أَضْعَفِ خَلْقِهِ"، وإنَّ كلَّ أعداءِ كافور وشانئيه إنَّهم لَفي غَمْرةِ الهَذَيانِ...، ولم يبقَ للمتنبِّي إلَّا أنْ يَرْمِيَهم بالجُنونِ!، ثمَّ إنَّ مجدَ كافور لم يَكُنْ بالطِّعانِ والسُّيوفِ والرِّماحِ بل كانَ بالحَظِّ، والمَرْءُ لا يدَ له في الحَظِّ، إذًا لا يدَ لكافور في كلِّ ما انقادَ له من مَجدٍ.

وقد قالَ ابنُ الأَثيرِ (ت٦٣٧هـ/١٢٣٩م) تعقيبًا على هذه الأبيات: «فإنَّ هذا بالذَّمِّ أَشْبَهُ منه بالمدحِ؛ لأنَّه يقولُ: لم تَبْلُغْ ما بَلَغْتَه بسَعْيِكَ واهتمامِكَ، بل بِجَدٍّ وسَعادةٍ، وهذا لا فَضْلَ فيه؛ لأنَّ السَّعادةَ تَنالُ الخامِلَ والجاهِدَ ومَنْ لا يَسْتَحِقُّها، وأكثرُ ما كانَ المُتنبِّي يَسْتَعْمِلُ هذا القِسْمَ [يَقصدُ مُحتمِلَ الضِّدَّين] في قصائدِه الكافوريّات».[٢١]

- وأمَّا ما وقَعَ بين الزِّبْرِقان بن بَدْر والشّاعرِ الحُطَيْئَةِ (ت٤٥هـ/٦٦٥م) بعدَ قولِه: [البسيط]

دَعِ المكارمَ لا تَرحَلْ لِبُغْيَتِها واقعُدْ؛ فإنَّكَ أنتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي[٢٢]

– ظاهرُ هذا البيتِ مَدْحٌ للزِّبْرِقانِ بأنّه لا يحتاجُ السَّعْيَ وراءَ المَكارمِ والعظائمِ؛ لأنّه هو الذي يُطْعِمُ النّاسَ ويَكْسُوهم.

---

[٢٠] انظر: ديوان المتنبي ٤/٢٧٥.

[٢١] انظر: المثل السَّائر ١/٦٥.

[٢٢] انظر: ديوان الحُطَيئة ص٥٠، وفيه قصَّةُ تحكيم حسَّان رضي الله عنه بينَهما.

- ولكنّ الزِّبْرِقانَ فَهِمَ أنَّ الحُطَيْئَةَ يَطْلُبُ منه أنْ يَذَرَ المآثرَ ويَتْرُكَها، وكأنَّه يسألُ نفسَه: ألم يبقَ من مروءتي إلّا أنْ أجلسَ في بيتي كالنِّساء أُطْعَمُ وأُكْسَى؟!.

ومعلومٌ أنَّ في هذا إزْراءً لا قبلَه ولا بعدَه، وفيه من الرَّمْيِ بالبُخلِ والجُبنِ وقِلّةِ المروءة ما لا يحتملُه عربيٌّ.

وقيل: إنَّهما اختصما إلى عُمرَ بنِ الخطَّاب رضي الله عنه، والحطيئةُ يَزْعُمُ أنّه ما أرادَ إلَّا المدحَ، والزِّبرقانُ مُصِرٌّ على أنَّ هذا هِجاءٌ موجعٌ لا بُدَّ للحطيئةِ أن يَنالَ عقابَه عليه، فأَرْسَلَ عمرُ في طَلَبِ حسَّانِ بنِ ثابتٍ رضي الله عنه؛ ليحكُمَ بينَهما.[٢]

- وكذا ما وقَعَ بينَ بني العَجْلانِ والشَّاعرِ النَّجاشِيّ قَيْسِ بْنِ عَمْرٍو (ت٤٠هـ/٦٤٠م)، فقد حُكِيَ أنَّ بني العَجْلانِ كانُوا يَفْخَرُون بهذا الاسمِ؛ لقِصَّةٍ كانَتْ لصاحبِه في تعجيلِ القِرَى لأضيافِه، إلى أنْ هَجَاهُم النَّجاشيُّ، فضَجِرُوا منه، وسُبُّوا به، فاستَعْدَوا عليه عُمَرَ بنَ الخطَّابِ رضي الله عنه، فقالُوا: يا أميرَ المؤمنين، هَجَانا، وأنشدوهُ قولَه: [الطَّويل]

قُبَيِّلَةٌ لا يَغْدِرون بذِمَّةٍ ولا يَظْلِمون النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

فقالَ عمرُ: ليتَني مِن هؤلاءِ، أو قالَ: ليتَ آلَ الخَطَّابِ كذلك.

فقالُوا: فإنّه قال:

تَعَافُ الكِلَابُ الضَّارِياتُ لُحُومَهمْ وتَأْكُلُ مِنْ كَعْبِ بْنِ عَوْفٍ ونَهْشَلِ

فقال عمرُ: كَفَى ضَيْاعًا مَنْ تَأْكُلُ الكِلابُ لَحْمَه![٢]

والآنَ نقولُ: كلُّ أولئك الأشعارِ، وكلُّ شِعْرٍ أَشْكَلَ بينَ ضِدَّين كالمدح والهجاء لا يكونُ من الإبهام إلَّا إنْ أُعيدَ إلى سياقِه، ونُظِرَ في القرائن المحيطة به، ولم يُهتدَ بعد ذلك إلى ترجيح أحدِ المعنيين، وقد علَّقَ ابنُ السِّيْد البَطَلْيَوْسِيّ (ت٥٢١هـ/١١٢٧م) على البيت الأوّل (قُبَيِّلَةٌ...) بقولِه: "ألا ترَاهُ قد أَخرجَ هذا الكلامَ مُخْرَجَ الهَجْوِ، ولولا أَنَّ في غير هذا البيت دليلًا على ذلك لَكان من الثَّنَاء والمدح".[٢]

---

[٢٣] انظر: ديوان الحُطَيئة ص٥٠، وطبقات فحول الشُّعراء ١/١١٦.

[٢٤] انظر: العمدة ١/٦٤- ٦٥، وفيه الخبرُ كاملًا.

[٢٥] انظر: الإنصاف في التنبيه على المعاني ص٦٥.

وأظنُّ أنَّ هذه الالتفاتةَ من ابنِ السِّيْدِ شديدةُ الخُطورةِ والأهميّةِ؛ لأنَّها تُنَبِّهُ إلى أنَّه لا يجوزُ الحُكمُ على أيِّ كلامٍ بأنّه من الإبهام وهو منسلِخٌ من سياقِه، وتنبّه أيضًا إلى ضرورةِ النَّظَرِ في القرائنِ المُحيطةِ بهذا الكلام، ومحاولةِ ترجيح أحد المعنَيين المُحتمَلَينِ قبلَ نَعْتِهِ بالمُبهَم.

- فمثلًا تَرى العربَ يقولون: (فلانٌ بيضةُ البلد) وهذا التَّركيبُ مِمّا يُمدَحُ به ويُذَمّ، وقال ابنُ رشيق: "فمَن مَدَحَ: أرادَ بها أصلَ الطّائر، ومَن ذَمَّ: أردَ أنَّها لا أصلَ لها[٢٦]، قالَت أختُ عمرِو بنِ عَبْدِ وِدٍّ في عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لمَّا قَتَلَ أخاها عَمْرًا قائدَ المشركين: [البسيط]

لَو كَانَ قَاتِلُ عَمْرٍو غَيْرَ قَاتِلِهِ لَقَدْ بَكَيْتُ عَلَيْهِ آخِرَ الْأَبَدِ

لَكِنَّ قَاتِلَهُ مَنْ لا يُعَابُ بِهِ وكَانَ يُدْعَى قَدِيمًا بَيْضَةَ الْبَلَدِ

فهذا مَدْحٌ لعليٍّ رضي الله عنه كما ترى.

وقال الرّاعي النُّمَيريّ يهجو عَدِيَّ بنَ الرِّقاعِ العامِلِيّ: [البسيط]

لَو كُنْتَ مِن أَحَدٍ يُهْجَى هَجَوتُكمُ يا ابْنَ الرِّقاعِ، ولَكِنْ لَسْتَ مِن أَحَدِ

تَأْبى قُضَاعَةُ أَنْ تَرْضَى لَكُمْ نَسَبًا وابْنَا [٧]نِزَارٍ؛ فأَنْتُمْ بَيْضَةُ الْبَلَدِ"[٢٧]

فهذا ذَمٌّ لِعَدِيٍّ وقومِه بأنَّهم لا أصلَ لهم ولا حسَبَ ولا نَسَب.

وهذا المثالُ (بَيْضَةُ البَلَد) الذي أُريدَ به المدحُ في الشِّعر الأوّل، وأريد به الذَّمّ في الثّاني، هذا المثال يؤكِّدُ أنَّ الكلامَ لا يجوزُ أنْ يُحكَمَ عليه بأنَّه من الإبهام البديعيّ الذي يحتمِلُ معنيَين متضادَّين معًا، إلَّا بعدَ قراءته في سياقِه، ومعرفةِ القرائن المحيطةِ به، ومِن ثَمَّ يُرجَّحُ بينَ المعنيَين،

---

[٢٦] انظر: العمدة ٢/٨٩٩.

[٢٧] انظر: العمدة ٢/٩٠٠.

وإنْ لم يُهْتَدَ –بعدَ ذلك كُلِّه– إلى قرينةٍ مُرجِّحَةٍ؛ فيكونُ الكلامُ ممّا نحنُ فيه من باب الإبهام البديعيّ.

ونحن في هذا المقالِ نؤكِّدُ على ذلك مِرارًا؛ لأنَّ كثيرًا من الأمثلة التي ساقَتْها الكتُبُ على أنَّها من الإبهامِ البديعيّ؛ لو أُعيدَتْ في سياقاتِها، ونُظِرَ في القرائنِ المحيطةِ بها؛ لترجَّحَتْ معانيها المحتملة، ولَتَبَيَّنَ أنَّها مدحٌ أو ذَمٌّ، ولَما بقيَ منها ما يَصْدُقُ عليه حَدُّ الإبهام إلّا قليلٌ.

- والأمثلة الشعرية التي تدخُلُ في الإبهامِ المُتَرَدِّدِ بينَ المَدْحِ والذَّمِّ (إنْ عُزِلَتْ عن سياقِها) قولُ ابنِ الرُّومِيِّ: [السَّريع]

لَيْسَ بِهِ عَيْبٌ سِوَى أنَّهُ ... لا تَقَعُ العَيْنُ على مِثْلِهِ[٢٨]

فلكَ أنْ تفهمَ البيتَ ذمًّا خالصًا؛ أو مدحًا خالصًا؛ يعني:

- الذَّمّ: هذا امرؤٌ لا نظيرَ له في كَثْرَةِ المَعايبِ والمَثالِبِ والقَبائِحِ.
- المدح: هذا امرؤٌ ليس له كُفْءٌ ولا نظيرٌ في عَظَمَةِ شَأْنِه.

وبالتَّفسيرِ الثّاني يكونُ من باب تأكيد المدح بما يُشبهُ الذَّمَّ.

- وكذلك ممّا يدخُلُ في الإبهامِ المُتَرَدِّدِ بينَ المَدْحِ والذَّمِّ (إنْ عُزِلَ عن سياقِه) قولُ الشَّاعرِ: [الطّويل]

ويَرْغَبُ أَنْ يَبْنِي الْمَعَالِيَ خَالِدٌ ... ويَرْغَبُ أَنْ يَرْضَى صَنِيعَ الأَلائِمِ[٢٩]

معلومٌ أنَّ قولَنا: (رَغِبَ في الشَّيْء: أَحَبَّهُ)، و(رَغِبَ عنه: كَرِهَه)، وبناءً عليه فإنَّ هذا البيتَ يَصْدُقُ فيه تعريفُ الإبهامِ البديعيّ؛ فهو يحتمِلُ المدحَ والذَّمَّ:

- فإذا قَدَّرتَ حرفَ الجَرِّ (في) أوَّلًا، و(عن) ثانيًا: (يرغبُ في أن يبنيَ المعاليَ، ويرغبُ عن أنْ يرضى صنيعَ الألائمِ)؛ فهو مدحٌ.
- وإنْ عَكَسْتَ (يرغبُ عن أن يبنيَ المعاليَ، ويرغبُ في أنْ يرضى صنيعَ الألائمِ)؛ فهو ذَمٌّ.

---

[٢٨] () انظر: ديوان ابن الرّومي ٢٦١٧/٦.

[٢٩] () انظر: أنوار الربيع ١٣/٢.

والإبهامُ البديعيُّ الحاصلُ في هذا البيت إنْ لم يكُنْ على نِيَّةٍ من الشَّاعر وقصْدٍ فهو من مَعايبِ الكلامِ؛ لأنّ عدمَ تعيين الجارّ أوقَعَ في اللَّبْس، أمَّا إنْ كانَ الشَّاعر قاصِدًا لحذْفِ الجارِّ مُرِيدًا الإبهامَ فاللَّبسُ ههنا حسَنٌ.

- ومن الأشعارِ التي مَثَّلُوا بها على الإبهامِ البديعيّ ما حَكَوه من أنَّ شاعرًا أتى مع الشُّعراءِ الآخرِينَ، وهنَّأَ الوزيرَ العبَّاسيَّ الحسَنَ بنَ سَهْلٍ (ت٢٣٦هـ/٨٥١م) بتزويج ابنتِه بُوْرانَ للخليفةِ المأمونِ؛ فأثابَ الحسنُ الشُّعراءَ كُلَّهم وحَرَمَه، فكتب إليه الشّاعرُ: إنْ أنتَ تمادَيْتَ في حِرْماني عَمِلْتُ فيك بيتًا لا يَعلمُ أحدٌ مدحتُكَ فيه أم هَجَوتُكَ، فاستحضره الحسنُ وسأله عن قولِه، فاعترفَ، فقال الحسنُ: لا أعطيك أو تفعل، فقال: [مجزوء الخفيف]

بَارَكَ اللهُ لِلْحَسَنْ وَلِبُورَانَ في الخَتَنْ

يا بْنَ هَارُونَ قَدْ ظَفِرْ نتَ، ولَكِنْ بِبِنْتِ مَنْ؟[٣]

فلم يُعْلَمْ هل أرادَ بسؤالِه: (بِنْتِ مَن؟) في الرِّفعةِ أو في الحقارةِ؟ ولِذا حينَ نُمِيَ هذا الشِّعرُ إلى المأمونِ قال: واللهِ ما نَدْرِي أَخيرًا أرادَ أَم شَرًّا؟

- ومن الأشعارِ التي أوغلَ اللُّغويّون في تأويلِها حتَّى استطعْنا أنْ نُدخلَها في الإبهامِ البديعيّ قولُ الشَّاعر داعيًا: [الوافر]

فجُنِّبْتَ الجيوشَ أبا خُبَيْبٍ وجادُ على مسارِحكَ السَّحابُ[٣]

فقد قال الجاحظُ (ت٢٥٥هـ/٨٦٩م): "يجوزُ أن يكونَ دعا له، ويجوزُ أن يكونَ دعا عليه".[٣]

وذكَرَ ابنُ رشيقٍ القَيْرَوَانيُّ (ت٤٦٣هـ/١٠٧١م) أنَّهم فَسَّرُوا ذلك بأنَّه:

---

[٣٠] انظر: معاهد التّنصيص ١٣٩/٣، وأنوار الرَّبيع ٨/٢.

[٣١] انظر: البيان والتبيين ١٦٢/٢، والبيت فيه بلا نسبة.

[٣٢] انظر: البيان والتبيين ١٦٢/٢.

- "إنْ دعا له فإنَّما أَرادَ أنْ يُعافى من الجيوش، وأنْ يَجُودَه السَّحابُ فتُخْصِبَ أَرْضُه.
- وإنْ دعا عليه قال: لا بَقِيَ لك خيرٌ تَطْمَعُ فيه الجيوشُ، فهي تَتَجَنَّبُ دِيارَكَ؛ لعِلْمِهم بقِلَّةِ الخيرِ عندَك، ويدعو على مَحِلَّتِهِ بأنْ تَدْرُسَها الأمطارُ".[٣٢]

وقد رُوِيَ هذا البيتُ بروايةٍ أُخرى:

فجُنِّبْتَ العَوارَ أبا زُنَيْبٍ وجادَ على مَحلّتِك السَّحابُ[٣٣]

فقالَ القاضي عليّ بن عبد العزيز الجُرجانيُّ (ت٣٩٢هـ/١٠٠١م):

- "مَن يسمَعْ هذا البيتَ يظنُّه دعاءً له واستسقاءً لأرضِه.
- وإنَّما مُرادُ الشَّاعرِ: الدُّعاءُ عليه أنْ يُهْلِكَ اللهُ إبِلَه، فلا يَمْلِكُ منها ما يُعَارُ عليه[٣٤]، وأنْ تَجودَ السَّحابُ على أَرْضِه، وهو مُمْلِقٌ، فيَشْتَدَّ أَسَفُه على ما ذهَبَ مِن مالِه إذا رَأَى الأرضَ مُخْصِبَةً، وسائمةُ الحَيِّ راعيةٌ".[٣٥]

٦

- ومن تلك الأبيات المُحتمِلةِ المعنى قولُ الشَّاعرِ: [الطّويل]

هَجَمْنَا عليه، وهْو يَكْعِمُ كَلْبَهُ دَعِ الكلْبَ يَنْبَحْ؛ إنَّما الكلْبُ نابِحُ[٣٦]

وكَعَمَ الرَّجُلُ الكلبَ إذا أَغْلَقَ فَمَهُ؛ لِئَلَّا يَنْبَحَ، وقد روى ابنُ رشيقٍ (ت٤٦٣هـ/١٠٧١م): أنَّهم "قالوا:

- فالمدحُ أنْ يكونَ إنَّما يَكْعَمُه؛ لِئَلّا يَعْقِرَ [يَعَضَّ] الضُّيوفَ.
- ومن الذَّمِّ أنْ يكونَ ذلك؛ لئَلّا يَنْبَحَ فَيَدُلَّ عليه الضَّيفَ"[٣٧]

وقد لاحظْنا أنَّ أكثرَ ما يكونُ هذا الإبهامُ البديعيُّ في أسلوب السُّخريةِ، وقلَّما يلجأُ إليه المادحُون؛ لأنَّ المديحَ إذا كان مُحتمِلًا للضِّدَّين كانَ قبيحًا في نفْسِ الممدوح، أمَّا الَّذي يهجو أو يسخَرُ فإنّه يُضْطَرُّ

---

[٣٣] انظر: العمدة ٨٩٦/٢.

[٣٤] انظر: الوساطة ص٤١٩.

[٣٥] يعني إذا جاءَهُ الضُّيوفُ، ولم يُقدِّمْ له طعامًا؛ لم يُعيِّروه بالبُخلِ؛ لأنّهم يعلمون أنّ إبِلَهُ قد هَلَكَتْ.

[٣٦] انظر: الوساطة ص٤١٩.

[٣٧] انظر: العمدة ٨٩٥/٢، والبيت فيه بلا نسبة.

[٣٨] انظر: العمدة ٨٩٥/٢.

إلى إبهامِ كلامِه وإبهامِ سامعِه؛ حتَّى يَسْهُلَ عليه التَّبَرُّؤُ من سُخريته هذه، ويَسْهُلَ عليه التَّفلُّتُ من عقوبةٍ قد تُنْزَلُ به إذا ثَبَتَتْ عليه تُهْمَةُ السُّخْريةِ، وقد يَعْمِدُ السَّاخرُ إلى هذا الإبهام لا خَشيةً من عقوبةٍ، بل لزيادة الهُزْءِ والعَبَثِ بمَهْجُوِّه؛ كما فعَلَ بشّار بالخيّاطِ الأَعْوَرِ.

❖ ثالثًا: الأمثلة القُرآنيّة والنّثريّة:

- حُكِيَ في قصّةٍ طريفةٍ أنَّ رَجُلَينِ اختلفا في أيِّهما أَكْرَمُ عندَ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أبو بكرٍ أم عليٌّ رضي الله عنهما جميعًا؟ ومعلومٌ أنَّ هذا سؤالٌ لا يدري جوابَه إلَّا رسولُ الله، فأجابَهما المسؤولُ جوابًا لا مزيدَ في الحُسْنِ عليه؛ إذ قال: «الذي كانَتْ ابنتُه تَحْتَه[٣]»، فأرضاهما معًا:
  - لأنَّ مَن يُفضِّلُ أبا بكرٍ رضيَ الله عنه أعادَ الضَّميرَ الهاء في كلمة "ابنته" على أبي بكر، والضَّمير الهاء في كلمة "تحته" على الرّسول صلّى الله عليه وسلّم؛ وأصبح تفسيرُ الجملة هكذا: الأكرمُ منهما هو من كانَت ابنتُه (ابنة أبي بكر: عائشة) زوجةً للرّسول صلّى الله عليه وسلّم.
  - ومن يُفضِّلُ عليًّا رضيَ الله عنه أعادَ الضَّميرَ الهاء في كلمة "ابنته" على الرّسول صلّى الله عليه وسلّم (فاطمة)، والضَّمير الهاء في كلمة "تحته" على عليٍّ رضيَ الله عنه ؛ وأصبح تفسيرُ الجملة هكذا: الأكرمُ منهما هو من كانَت ابنتُه (ابنة الرّسول: فاطمة) زوجةً لعليٍّ رضي الله عنه.

والعربُ تقولُ: فلانةٌ تحتَ فلانٍ؛ إذا كانت زوجًا له وتحتَ وِلايتِه، ومن ذلك قوله تعالى: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا) [التّحريم:١٠]، وإنَّ مَنْشَأَ الإبهامِ البديعيّ ههنا هو أنَّ المُجيبَ تَعَمَّدَ ألَّا يُحْكِمَ عبارتَه، ومن ثَمَّ أتى اختلافُ المُتلقّين في إعادة الضَّمير.

- ومن أمثلة الإبهام البديعيّ في القرآن الكريم قوله تعالى: (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالمسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا) [النّساء:١٢٧].

فالإبهامُ ههنا في قولِه سبحانه: (وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ)؛ وقد علَّقَ العُلماءُ على هذه الآية الكريمة؛ ومنهم الزَّمَخْشَرِيُّ (ت٥٣٨هـ/١١٤٣م) بقولِه: «كانَ الرَّجلُ منهم يضُمُّ اليتيمةَ إلى نفسِه ومالَها. فإنْ كانَت

---

[٣] () انظر: التحرير والتّنوير ٢٨/٣٧٥.

جميلةً تزوَّجَها وأكلَ المالَ، وإنْ كانَتْ دَمِيمَةً عَضَلَها [مَنَعَها] عن التزوُّج حتَّى تموتَ فيرثَها (وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ) يحتملُ:

- في أنْ تَنْكِحُوهُنَّ لِجَمَالِهِنَّ.
- وعن أنْ تَنْكِحُوهُنَّ لِدَمَامَتِهِنَّ».[٤٠]

فحَذْفُ الجارِّ ههنا أفضى إلى ما نسميّه الإبهام البديعيّ الذي وسَّعَ المعنى؛ والإبهامُ الحاصلُ ههنا فيه ترغيبٌ وترهيبٌ يَشْعُرُ به مَنْ يتدبَّرُ القرآنَ الكريمَ.

- ومن أمثلة الإبهام البديعيّ في القرآن الكريم أيضًا قوله تعالى: (وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ) [البقرة:٢٢٨]، فإنَّ الفُقهاءَ اختلفُوا؛ هل المقصود بـ(ثلاثة قُرُوء:(

- ثلاثة أطهار.
- أو ثلاثُ حَيْضاتٍ.[٤١]

لأنَّ القَرْأَ من ألفاظِ الأضدادِ في لُغة العرب، تُطلَقُ على الطُّهْر وعلى الحَيْضِ جميعًا[٤٢]. وهذه المسألةُ (ثلاثة قروء) مُشتهَرَةٌ في كُتُب الفقه وأصول الفقه؛ بسبب الإبهام الحاصل في تلك اللّفظة (قُروء).

- ومن أمثلة الإبهام البديعيّ في القرآن الكريم ما وَرَدَ في سورة الكهف عندَما خَرَقَ الرَّجلُ الصَّالحُ السَّفينةَ، فتعجَّب منه موسى عليه السّلام، وأَنْكَرَ عليه نبيُّ الله ذلك، فأجابه فيما أجابَه: (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)[الكهف:٧٩]، فإنَّ كلمة (وراءهم) ههنا تحتملُ أنَّه أمامَهم؛ كقولِه تعالى: (وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)[المؤمنون:١٠٠]، وتحتملُ أنْ يكونَ وراءَهم، وهو يطلبُهم.[٤٣]

❖ خاتمة:

إنَّ الإبهامَ الحَقَّ هو الإبهامُ الَّذي تُعْدَمُ فيه مُحدِّداتُ الدَّلالة تمامًا؛ كما فَعَلَ بشَّار مع الأعورِ.

---

[٤٠] انظر: الكشّاف ٢/١٥٥-١٥٦.

[٤١] انظر: مقدّمة تفسير ابن النَّقيب ص٣٤٧.

[٤٢] انظر: اللّسان (قرأ).

[٤٣] انظر: الكشّاف ٣/٦٠٦، ومقدمة تفسير ابن النَّقيب ص٣٤٧.

وقد قال ابنُ الأثير (ت٦٣٧هـ/١٢٣٩م) في بيان قيمة الإبهام: «إنَّه قليلُ الوقوعِ جدًّا، وهو مِن أَظْرَفِ التَّأويلاتِ المعنويّةِ؛ لأنَّ دَلالةَ اللَّفظِ على المعنى وضِدِّه أَغْربُ مِن دَلالتِه على المعنى وغيرِه ممَّا ليسَ بضدِّه... وهو ممَّا يدلُّ على براعةِ الشَّاعرِ وحُسْنِ تأتِّيه.[٤٤]»

وهذا الفَنُّ ممّا تميلُ إليه نُفوسُ مُتذوّقي الأدبِ؛ إذْ ليسَ فيه ما يُطَمْئِنُ ذِهْنَ المُتلقِّي إلى معنًى مُحدَّدٍ، بل يجعلُ ذهنَ المتلقّي مُنشغِلًا في البحث عن القرائن المُحدِّدة للدَّلالة الَّتي يَقصِدُها المتكلِّمُ؛ لأنَّ النَّفسَ مفطورةٌ على حُبِّ الاطِّلاع، وكَشفِ الألغاز والمُبهَمات.

وهنا يبدأُ المتلقِّي بتأويلِ الكلامِ والبحث في باطنِه، وعمليّةُ التأويلِ هذه إمّا أنْ تُفْضِيَ إلى الكشفِ عن المعنى العميقِ المقصود، وإمّا أنْ تكونَ طريقةُ سَبْكِ الكلامِ محكَمةً قاصدةً إلى إخفاء المراد إخفاءً تامًّا، فلا يُفلِحُ مُتَلَقٍّ في معرفةِ المراد.

وههنا تَبْرُزُ الفروقُ بينَ القُرّاءِ، فللنَّصِّ معنًى ظاهرٌ قد يكونُ مَشاعًا لكلِّ قارئ، ومعانٍ أُخَرُ لا يستدعيها من رُقادِها إلا المتلقّي الفَطِنُ؛ بشَرْطِ ألّا يَشْتَطَّ هذا المتلقّي في تأويلاتِه بعيدًا عن السّياق، وموافقةِ التّأويل لمقتضى حالَي المتكلِّم والمخاطَب.

وإنَّ غُمُوضَ الدَّلالةِ في التَّركيبِ إمَّا أنْ يكونَ نابِعًا مِن جِبِلَّةِ اللُّغةِ مُتخلِّقاً من النَّواميسِ الفاعلةِ في تشكيل النِّظامِ اللُّغويِّ؛ كاللَّبْسِ الصَّرفيّ، أو النَّحويّ: من حذف، وتقديمٍ وتأخيرٍ..، أو المُعْجَمِيِّ ودخولِ المشتركِ اللَّفظيّ في أثناء الكلام، وقد يأتي هذا الخفاءُ أو اللَّبسُ من خارجِ اللُّغة؛ كاللَّبْسِ السِّياقيّ أو الأُسلوبيّ. وقد يكونُ اللَّبْسُ بسبب قرائنَ خارجيّة؛ كقرينةِ الحال ولُغة الجسد...

وأخيرًا نقولُ: إنَّ النّصَّ الذي تتكاثرُ فيه ألوانُ الإبهامِ واتِّساعِ المعنى يكونُ غنيًّا بدلالاته؛ ويسمحُ للمتلقّي بالقراءة التّفاعُليّة؛ ليعبِّرَ هذا القارئُ عن ذاته في تأويل النصّ، وهنا يبرزُ الفرقُ بين النُّصوصِ الفقيرةِ الدّلالات وبين النُّصوص الغنيّة.

***

[٤٤]() انظر: المثل السَّائر ١/٦٤- ٦٦.

المصادر والمراجع

مصادر البحث ومَراجعه

- ❖ أوّلًا: القرآن الكريم.
- ❖ ثانيًا: الكُتُب المطبوعة.

١- الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجَبَت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم، لابن السِّيد البَطَلْيَوْسِيّ (ت٥٢١هـ/١١٢٧م)،تحقيق د. رضوان الدّاية، دار الفكر بدمشق، ط٢، ١٩٨٣م.

٢- أنوار الرّبيع في أنواع البديع، لابن معصوم المدنيّ (ت١١١٩هـ/١٧٠٧م)، تحقيق شاكر هادي شكر، مطبعة النّعمان، العراق- النَّجف، ط١، ١٩٦٨م.

٣- البيان والتَّبيين، للجاحظ (ت٢٥٥هـ/٨٦٩م)، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، (د.ط)، ٢٠٠٣م.

٤- تاج العروس من جواهر القاموس، للمرتضى الزّبيديّ (ت١٢٠٥هـ/١٧٩٠م)، طبعة الكويت ١٩٦٥م.

٥- تأويل مُشكِل القرآن، لابن قُتَيبة (ت٢٧٦هـ/٨٨٩م)، تحقيق السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، بالقاهرة، طبعة جديدة مُنقَّحة، ٢٠٠٦م.

٦- تحرير التَّحبير، لابن أبي الإصبع (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، تحقيق د. حفني شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالدولة العربية المتحدة، القاهرة، ١٣٨٣هـ.

٧- التّعريفات، للشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ/١٤١٣م)، تحقيق جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت – ط١، ١٩٨٣م.

٨- جامِعُ الأُصول في أحاديث الرّسول، لأبي السّعادات ابن الأثير الجَزَريّ (ت٦٠٦هـ/١٢١٠م)، تحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، دار الفكر،١٩٧١م.

٩- خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حِجّة الحمويّ (ت٨٣٧هـ/١٤٣٣م)، تحقيق د. كوكب دياب، دار صادر، بيروت، ط٢، ٢٠٠١م.

١٠- الخصائص، لابن جنّيّ (ت٣٩٢هـ/١٠٠٢م)، تحقيق محمد علي نجّار، الهيئة العامة المصريّة للكِتاب، ط٤، ١٩٩٩م.

١١-دُرر الفرائد المستحسنة في شرح منظومة ابن الشِّحنة (في علوم المعاني والبيان والبديع)، لابن عبد الحق العمري الطرابلسي (ت١٠٢٤هـ)، دراسة وتحقيق الدكتور سليمان حسين العميرات، دار ابن حزم، لبنان، ط١، ٢٠١٨م.

١٢-ديوان ابن الرّومي، تحقيق د. حسين نصّار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١م.

١٣-ديوان الأعشى (كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير - الأعشى، والأعشَيْنَ الآخرِين) مع شرح أبي العبّاس ثعلب، مطبعة آدُلف هُلزهوسن، (د.ط)، ١٩٢٧م.

١٤-ديوان الحطيئة، تحقيق د. نعمان طه، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ١٩٨٧م.

١٥-ديوان المتنبّي، بشرح أبي البقاء العُكْبَريّ (ت٦١٦هـ/١٢١٩م) المسمَّى بالتّبيان في شرح الديوان، ضبطه وصححه ووضع فهارسه، مصطفى السّقا وآخرون، دار المعرفة بيروت. (د.ط.ت).

١٦-ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٥٨م.

١٧-ديوان بشّار بن برد، كمّله وشرَحَه محمّد الطّاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة، (د.ط)، ١٩٥٠م.

١٨-رسالة في قَلْب كافوريّات المتنبّي من المديح إلى الهِجاء، لحُسام الدِّين زاده (ت١٢٨١هـ/١٨٦٤م)، تحقيق د. محمد يوسف نجم، مؤسسة الرِّسالة - بيروت، ط١، ١٩٧٢م.

١٩-رياض الصَّالحين، للإمام أبي زَكَريّا يَحيى بن شَرَف النَّوَوِيّ الدِّمشقيّ (ت٦٧٦هـ/١٢٧٧م)، تحقيق عبد العزيز رباح وأحمد يوسف الدقَّاق، ومراجعة الشيخ شُعيب الأرناؤوط، دار الثّقافة العربيّة، دمشق، ط١٣ منقّحة، ١٩٩٨م.

٢٠-شرح ديوان الحماسة للمَرزوقيّ (ت٤٢١هـ/١٠٣٠م)، تحقيق غريد الشيخ ووضع فهارسه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت ط ١، ٢٠٠٣م.

٢١-صحيح البُخاريّ، للإمام أبي عبد الله البخاري (ت٢٥٦هـ/٨٧٠م)، تحقيق د. مصطفى البُغا، دار العلوم الإنسانية بدمشق، ط٢، ١٩٩٣م.

٢٢-طبقات فُحول الشُّعراء، لابن سَلَّام الجُمَحِيّ (٢٣٢هـ/٨٤٦م)، تحقيق الشيخ محمود محمد شاكر، دار المدنيّ بجدّة، (د.ط)، ١٩٧٤م.

٢٣-العُمدة في صناعة الشِّعر ونقدِه، ابن رَشيق القَيْرَوانيّ (ت٤٦٣هـ/١٠٧١م)، تحقيق د. النَّبوي عبد الواحد شَعلان، مكتبة الخانجي، بالقاهرة، ط١، ٢٠٠٠م.

٢٤-كتاب الأمثال، لابن سلَّام (ت٢٢٤هـ/٨٣٨م)، تحقيق د. عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث بدمشق، ط١، ١٩٨٠م.
٢٥-الكتاب، لسيبويه (ت١٨٠هـ/٧٩٦م)، تحقيق الأستاذ عبد السّلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، (د.ت).
٢٦-الكشّاف عن حقائق التّأويل وعيون التَّنزيل في وجوه التأويل، للزَّمخشريّ (ت٥٣٨هـ/١١٤٣م)، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوّض، مكتبة العبيكان، ط١، ١٩٩٨م.
٢٧-لسان العرب، لابن منظور (ت٧١١هـ/١٣١١م)، عُني بتصحيح طبعته أمين محمد عبد الوهَّاب، ومحمّد الصَّادق العبيديّ، ط٣، دار إحياء التُّراث العربيّ، بيروت، (د.ت).
٢٨-المَثَل السَّائر في أدب الكاتب والشَّاعر، لضياء الدِّين بن الأثير (ت٦٣٧هـ/١٢٣٩م)، تحقيق د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طَبانة، نهضة مصر للطّباعة والتّوزيع والنشر بالقاهرة، (د.ط.ت).
٢٩-معاهد التّنصيص على شواهد التّلخيص، لعبد الرّحيم العبّاسيّ (ت٩٦٣هـ/١٥٥٦م)، تحقيق الشيخ محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، ١٩٤٧م.
٣٠-معجم المصطلَحات البلاغيّة وتطوّرها، د. أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، ط٢، ٢٠٠٠م.
٣١-مُغني اللَّبيب عن كُتُب الأعاريب، لابن هشام الأنصاريّ (ت٧٦١هـ/١٣٦٠م)، تحقيق د. مازن المبارك، وأ. محمّد علي حَمْد الله، ومراجعة أ. سعيد الأفغاني، مؤسسة الصّادق، طهران، ط٣، ١٣٧٨هـ.
٣٢-مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والبديع والمعاني وإعجاز القُرآن، لابن النَّقيب (ت٦٩٨هـ/١٢٩٨م)، تحقيق د. زكريّا سعيد علي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ١٩٩٥هـ.
٣٣-المَنْزِع البديع في تجنيس أساليب البديع، للسِّجِلْمَاسِيّ (ت بعد٧٠٤هـ/١٣٠٥م)، تحقيق د. علال الغازي، مكتبة المعارف، الرّباط، ط١، ١٩٨٠م.
٣٤-الوساطة بين المتنبّي وخصومه، للقاضي عبد العزيز الجرجانيّ (ت٣٩٢٥هـ/١٠٠١م)، تحقيق د. محمد أبو الفضل إبراهيم، وعليّ محمد البجاويّ، مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر، (د.ط)، ١٩٦٦م.

❖ ثالثًا: المقالات.

1-Dinbilimleri Akademik Araştırma Dergisi – Samsun. 2016 Cilt:1. Sayı:16. s243-266.SULIMAN ALOMIRAT. **Arap Dili ve Belâğatı'nın İslami İlimleri Öğrenmedeki Yeri**.

2-Fatih Sultan Mehmet İlmî Araştırmalar insan Ve Toplum Bilimleri Dergisi. 2016. Yıl:4. Sayı:7. s197-224.SULIMAN ALOMIRAT. **Belâğat İlmi İle Kuran Tefsiri Arasındaki İlişki**.

3-SOSYAL BİLİMLER EKEV AKADEMI DERGISI. 2015. Yıl:19. Sayı:64. s135-182.SULIMAN ALOMIRAT. **KUR'ÂN-I KERİM'İN MAKSATLARININ YORUMLANMASINDA TEŞBİH BELAGATI**.

4-ANSAQ. Qatar University. İnternational Scientific issued by The Department of Arabic Language- College of Arts and Sciences. 2017. Cilt:1. Sayı:1. s247- 265.SULIMAN ALOMIRAT. **Ferrâ's Contribution to The Field of Arabic Rhetoric**.

***